١٦٩
لواء الحمد
مجلة علمية نصف سنوية تعني بالمعارف الإسلامية
السنة الخامسة ـ العدد التاسع (صفر ـ رجب ١٤٤٦)

مكانة الإمام علي عليه السلام البلاغية من خلال نهج البلاغة عند المسيحيين العرب في العصر الحديث

مريم حكمت نيا[1]

الخلاصة: لعلّ أشهر مجموعة تصور بلاغة الإمام علي عليه السلام ما اختاره الشريف الرضي من كلام الإمام وجمعه في كتاب أسماه «نهج البلاغة». وعلى الرغم من أنّ هذه المجموعة قيض من فيض الإمام، وقطرة من محيطه الشاسع، إلاّ أنه يمثل بلاغة الإمام خير تمثيل.

لقد أعجب بنهج البلاغة ونهج علي عليه السلام في البلاغة، قديما و حديثا، كلّ من اطّلع عليه، إعجاباً جعل من نهج البلاغة كتاباً يحتلّ في العصر الحديث، المكانَ الأول في قائمة كتب الأدب والدين، عند المسلمين والمسيحيين، مما يجعله جديرا بالدراسة والتحليل في عصرنا الحاضر.

تقوم هذه الدراسة الوجيزة بالبحث عن مكانة الإمام علي ع عند الدارسين والأدباء المسيحيين من خلال ما كتبوه عن أدب الإمام ع عامة ونهج البلاغة خاصة، ويعتمد على المنهج الوصفي التحليلي، وذلك من خلال قراءة ما كتبه المسيحيون العرب في العصر الحديث ودراسة أشعارهم، وتصنيفها، وتحليلها.

فقد ركّز الأدباء المسيحيون وغيرهم على نهج البلاغة، واعتمدوا عليه كنموذج من بلاغة الإمام، واعتبروه آية إمامته في الأدب، والفكر، والدين، والسياسة،كما وجدوه دليل انسانية أدبه والذي يقوم في أسس البلاغة العربية في ما يلي القرآن.

الكلمات المفتاحية: الإمام علي عليه السلام - نهج البلاغة - البلاغة - المسيحيون - الأدب العربي - العصر الحديث.

---

١. مريم حكمت نيا. استاديار. دكترای ادبيات عربی. هيأت علمی دانشگاه قم.
ايميل hekmatnia290@yahoo.com؛

المقدمة

كان العصر الحديث بكل ما فيه من سلبيات للعالم العربي والإسلامي، قد حمل في طياته إيجابيات، إذ أخذت تتسع دائرة المجتمع الذي يعيش فيه العرب، فبدأوا يتطلعون إلى عالم أوسع، بما فيها من مظاهر الحضارة التي تتحداهم وتهدد كيانهم.

فأخذ الشعب العربي يستفيق لواقعه ويخرج من خموله ويُقبل على البحث عن جذروره وأصوله؛ بحثا عن شخصياته المثالية التي لعبت دورا كبيرا في حضارة العرب وإغناء تراثه في القرون التي مضت. ولا يمكن أن يخفى في هذا المجال دور الدارسين المسيحيين الذين كان معظمهم ممّن يحملون لواء العربية ويهتمون بتاريخها ولغتها وأدبها،و يسعون في تعزيزها.

وكان في طليعة الشخصيات التي تعرّف عليهم هؤلاء المسيحيون وتعمقوا في دراستهم **الإمام علي بن أبي طالب** عليه السلام، الذي سطع نجمه عند العديد من رجال الفكر العظماء وأخذ مركز الصدارة واحتلّ المكانة الأولى في تجسيد المثل الأعلى وتمثيل البلاغة؛ فوجدوا فيه شخصية مثالية، وسدرة المنتهى فى الكمال الإنساني، تتخطّى الحدود الدينية والطائفية، كما تتعدى حدود الأزمنة والأمكنة، لا يتعلق بقوم دون قوم، وبفرقة دون فرقة، يحمل أفكارا إنسانية انبثقت من مصدر إلهي وأسهمت إسهاما كبيرا فى الحضارة العالمية. لأهمية هذه الرؤى الفارغة من الحدود الطائفية والدينية وجدنا من المفترض علينا أن نقوم بدراسة ما سجله هؤلاء المسيحيون عن بلاغة الإمام و ما يدل عليه هذه البلاغة الراقية من حيث اللفظ والمعنى.

نحن في هذه المقالة، نسلِّط الضوء على جوانب من حياة إمام المتقين البلاغية وأبعاد من شخصيته البيانية الفذة؛ من منظار أبناء المسيحية الذين تخطّوا حدود شخصياتهم الدينية ونظروا إلى علي عليه السلام، وسبروا أغوار كلامه وبيانه، ليبحثوا عن الحقيقة الكامنة في وجوده، ويهتدوا بسلوكه في الحياة الإنسانية ويكشفوا عن أسرار بلاغته ويسيروا على خطاه.

وقد تبيّن لنا من خلال الشواهد العديدة فيما قالوا وكتبوا و أنشدوا، أنّ هؤلاء المسيحيين

قد أدركوا من وظائفهم الإنسانية أن يدرسوا كلام علي عليه السلام كنموذج **للبلاغة الإنسانية** ومَن هو جدير بأن يكون مثلا أعلى يُقتدى به في جميع العصور. وسنرى من خلالها، أنهم وجدوا ضالّة الإنسانية في شخصية الإمام علي عليه السلام الفريدة. فهو في رأيهم الأسوة الكاملة التي يمكن أن تُقدَّ م للبشرية في عالمنا الحاضر، وفي المستقبل، كما كانت كذلك في الماضي. فيجدر بالإنسان في العصر الحديث الذي يسير فيه العالم سيراً نحو الحياة الإنسانية الكبرى، أن يتخذ منه مثالاً لأرقى إنسان في العالم، ومن مناهج بلاغته منهاجا لأرقى المجتمعات البشرية فى العالم الإنساني بأجمعه. وليست بلاغته عليه السلام إلا نابعا من رؤيته الإنسانية؛ بل من رؤيته الربانية إلى الوجود عامة و إلى الإنسان خاصة.

المسيحيون، أهدافهم و دوافعهم

يجدر بنا ونحن نسير مع المسيحيين العرب في العصر الحديث الذين سلّطو الضوء على بلاغة الإمام علي عليه السلام لنتساءل عن أسباب كتابتهم عن بلاغة الإمام على عليه السلام باعتباره إماما للإسلام والمسلمين. من الطبيعي أنّه لا يمكن لأحد أن يكتب في موضوعٍ معين، إلاّ إذا كان على معرفة وسيعة به. **فمعرفة الإمام**، قبل كلّ شيء، تعتبر أقوى عامل من عوامل كتاباتهم عنه. وأما كيف ومن أيّ طريق تعرفوا على علي عليه السلام في العصر الحديث، وذلك بعد مضي قرون طويلة من حياته، وقد عصفت عليه عواصف الحقد والحسد، ولعبت أيدي خبيثة لتمحي آثاره ويطفئ نوره؟ هذا هو الذي يجعلنا نشير إشارة سريعة إلى الحقبة المعاصرة التي بدت فيها هذه الظاهرة قوية، وأخذ الاتجاه العلوي مجراه بين الدارسين، فانكبّ العلماء يدرسون شخصية الإمام علي عليه السلام، مسلمين ومسحيين، ماديين وإلهيين، شرقيين وغربيين.

يكاد يُجمع المؤرخون على أنّ البلاد العربية كانت قُبيل النهضة الحديثة (المعاصرة) يسودها الظلم والفساد، ويخيّم عليها الجهل والظلام، بعد أن ظلّت قرونا تحت حكم المماليك وسيطرة العثمانيين.

فلمّا أحسّت أوربا بضعف الدولة العثمانية، زادت أطماعها، وأسرعت فرنسا لتكون هي الأولى التي تضع أقدامها الاستعمارية على أرض عربية إسلامية. وبهجوم نابليون على

مصر، فتحت قناة ضخمة من قنوات الاتصال بالغرب وحضارته، بما كان له من الوجه الحضاري على الرغم من نيران مدفعياته واستعمارية أهدافه.

من الطبيعي جداً أن يحدث في مثل هذا المجتمع ما يحدث عادةً في الصراع بين التراث والمعاصرة، الذي يكون هو السبب دائماً في تطور الأجيال على وجه الأرض، ليأخذ البشر سبيله إلى الكمال بعد التمييز بين الصحيح والخطأ، والحقّ والباطل، واتّباع ما هو الأحسن والأنفع.

فكانت النتيجة المفيدة من هذه الصراعات، إلى جانب مضرّاتها الخاصّة لها، أنها تركت أثراً عميقاً في النفوس، وكان لها دور كبير في إيقاظ الشعب العربي، حيث شعروا معها بالحاجة إلى اللحاق بركب الحضارة الغربية من جانب وبمنافسة الغرب من جانب آخر، مما أدّى إلى إنشاء المدارس الوطنية على غرار مدارس الإرساليات التبشيرية. فنُشرت أمهات الكتب العربية في الشرق والغرب، وأهتمّ الأدباء والمفكرون بتعليمها اهتماماً كبيراً، وظهرت كتب عربية قيّمة إلى النور بفضل الطباعة، وانتشرت الأفكار في أوساط العامّة بفضل الصحف والمجلات.هذا ما أدّى إلى بعث روح الحياة والإبداع في فكرهم وأدبهم؛ كما أدّى إلى تعزيز المجتمع العربي، فأخذ المجتمع العربي يستفيق لواقعه ليتعرف على أصوله، ويخرج من خموله، فيرفعَ رأسه ليردّ على التحديات العنيفة التي واجهها من قِبل الدول الأوربية من جانب، والدولة العثمانية من جانب آخر، وليثبت وجوده إن استطاع ذلك. فقامت هنا وهناك حركات ثورية على وجه الاستعمار الغربي، وقامت حركات فكرية وأدبية تدعم الثوريين، كما انكبّ المفكرون والدارسون العرب، مسلمين و مسيحيين، من أصحاب التيارات والنزعات المختلفة، إلى دراسة التراث العربي بما فيه من الأدب والدين والتاريخ والاجتماع ...، ولم يكن ليستقيم هذا الطريق إلا بدراسة **الإسلام** باعتباره دينا ظهر فى العالم العربي و دان به العرب و كان له الفضل في حضارة العرب قديما و حديثا، و باعتباره جزءا لا يتجزأ من العرب. فتعرّفوا من خلالها على شخصيات قديمة في مجال الدين والتاريخ والعلم والأدب والسياسة؛ كما تعرفوا على قيم أخلاقية و إنسانية تربط الإنسان العربي بالإسلام؛ وقد صرح به عدد غير قليل من المسيحيين الذين أرادوا أن يحافظوا على عربيتهم تجاه الغرب الاستعمارى و

باهوا به واعتبروا الإسلام وطناً لأنفسهم وقد ذكر الدكتور ابراهيم الشهابي نماذج من هؤلاء في كتابه: **الشخصية العربية**، فقال:

فهذا «**وليم مكرّم عبيد**» يقول: «**أنا مسلمٌ وطناً ونصراني ديناً**» ويقول «**حنّا خلف**»، أحد أعوان عبد القادر الحسيني، قائد فرقة الجهاد المقدس، للإنكليز الذين ألقوا القبض عليه، وحاولوا إثارة النعرة الطائفية في نفسه بقولهم: كيف تتعاون مع عبدالقادر الحسيني المسلم ضدنا نحن المسيحيين مثلك؟ فيقول لهم: «**أنا مسيحي ديناً ومسلمٌ وطناً وقوميةً**»، فيسدّ عليهم الطريق ويردّ كيدهم إلى نحورهم. ويقول الأديب المسيحي «**أمين نخلة**»: «**إما أن يكون بيننا عربي من لحمنا ودمنا، ثم يغدو لا يمتّ إلى محمد ﷺ بعصبية، ولا إلى محمد ﷺ وقومية محمد ﷺ، فهو ضيف ثقيل علينا، غريب الوجه**

هذه النصوص تدلنا على أنّ قسماً من المسيحيين فضّلوا أن يعيشوا مع العرب المسلمين، ولم يفصلوا بين الإسلام والعروبة، وعرفوا أنّ البلاد العربية التي استوطنوها أعواماً عديدة بجانب المسلمين، وأسهموا في تراثها، آخذين ومعطين، أقرب إليهم من الغرب المسيحي، فدافعوا عنها بالسيف والقلم، وعرفوا أيضاً أن القومية العربية لم تقم على دعائمها ولم توثق عراها إلاّ بالإسلام كما قال الشاعر القروي، رشيد سليم الخوري:

عِش لِلعُروبَةِ هاتِفاً ... بِحياتِها و َدوامِها
وَامدُد يمينَ الحبِّ يا ... لُبنانَها بِشَآمِها
انظُر إلى آثارِها ... تُنبيكَ عَن أيامِها
هذا التُّراث يمُتُّ مُعـ ... ـظَمُه إلى إسلامِها

(الخوري، ص٥)

هكذا انكبّ المفكرون والدارسون العرب، مسلمين و مسيحيين،، إلى دراسة التراث الإسلامي إن كان باعتباره دين العرب أو باعتباره جذور الحضارة العربية. فالتقى المسيحيون بالإسلام مدافعين عنه باعتباره جذور الحضارة العربية، وجزءا لا يتجزأ من التراث العربي. من الطبيعي في هذا المجال، وهم في سبيل التعرف على التراث الإسلامي أن يلتقوا بالشخصيات الإسلامية الذين برزوا في العصر الإسلامي والذين كان

لهم دور كبير في ترسيخ دعائم الإسلام بجانب النبي محمد ﷺ. وكان على رأس تلك الشخصيات **عليُ بن أبى طالب**، و على رأس الكتب التراثية **نهجُ البلاغة**. فبهرتهم شخصية الإمام علي المثالية و حيّر عقولهم نهجه في البلاغة.

فقد قام من المسيحيين العرب، مَن أعدّ للدارسين المسيحيين طريق الوصول إلى نهج البلاغة والاطلاع عليها. ولا يستغرب أحدنا إن قلنا عن **فؤاد أفرام البستاني** المسيحى الذي أسهم في إنشاء الجامعة اللبنانية وكان أول رئيس لها، وكان الأستاذ الأسبق للآداب العربية في كلّيه القديس يوسف في بيروت وصاحب المؤلفات الفكرية والأدبية الكثيرة، إذ قام بإعداد كتاب موجز يتناول شخصية الإمام علي عليه السلام، وأضاف إليه بعض المختارات من خطب الإمام، وسمّاه «**نهج البلاغة، درس ومنتخبات**» وجعله أول كتاب يصدر عن موسوعته الأدبية المعروفة بسلسلة «**الروائع**»، والتي تتناول بالدراسة والتحقيق والعرض أهمَّ الكتب التراثية، والكنوز الأدبية، التي تركت آثاراً عميقة على السّاحة الفكرية المعاصرة.

يقول البستاني في هذا الكتاب: «**لعلي بن أبي عليه السلام شخصية جذابة، حامت حولها أقلام الرواة والمؤرخين، واجتهدت في فهمها عقول النقاد والمفكرين. واهتدت بهديها فرق الزهاد والسالكين، وسار تحت لوائها الجمّ الغفير من المتأدبين، ولم تكن الآراء المختلفة، والنظريات المتباينة، والمجادلات العديدة بين السنّيين والشّيعيين على كرور الأيّام، إلاّ لتزيد الرجل سمواً، وعقليته بروزاً**» (البستانى، المقدمة).

من هنا ومن مثل هذه المجالات في البلاد العربية الأخرى أيضا سطع نجم العبقري العظيم، الإمام علي عليه السلام، عند العديد من رجال الفكر العظماء والأحرار في العصر الحديث والتقوا جميعاً على اختلاف أديانهم وآرائهم وتياراتهم الفكرية و... في الاعتراف بعظمته وعجائب أفكاره وأقواله. فأصبح علي عليه السلام ملتقى الدارسين الأحرار والمفكرين الكبار، فمن مسلمٍ سنّي يعجب به ويكتب عنه ويقوم بشرح نهج البلاغة كالمصلح العظيم محمد عبده، وآخر الذي اشتهر بحدّة نقده ولذاعة لسانه، كالعقّاد تجده يلين بيانه ويخضع أمام أدب علي عليه السلام وفكره، ويكتب عن عبقريته، ويعتبره «**الإمام الأوحد**» الذي لا يشركه في صفة الإمامة أحد (راجع العقاد ١٩).

وتجد مَن لا يؤمن بالوحي إطلاقاً ولا بالنبوّة والإمامة بالمعنى الديني، يركع أمام عظمة علي عليه السلام النادرة ليقول: «**الإمام علي بن أبيطالب عظيم العظماء، نسخة مفردة لم يَرَ لها الشرق ولا الغرب صورة طبق الأصل، لا قديماً ولا حديثاً**»؛ كما جاء عن شبلي شميل (جرداق، صوت العدالة، ص٣٣).

وترى من المفكرين الغربيين من تهزّه الشخصية العلوية من أعماقه مثل كارليل الإنكليزي ليقول فيما يقول عن علي عليه السلام: «**فلا يسعنا إلاّ أن نحبّه، ونتعشقه، فأنّه فتىً شريف القدر، عالي النفس، يفيض وجدانه رحمةً وبراً، ويتلظى فؤاده نجدة وحماسة**»(نفسه، ص٩٥٩).

هذه صورة مجملة وإشارة عابرة لالتقاء المفكرين والأدباء المسيحيين بعلي عليه السلام في العصر الحديث، والذي نسميه «**ملتقى الاتجاهات الفكرية الحرة**» في ذلك العصر. هذا هو السبب العام لدراسة عليٍ عليه السلام والكتابة عنه عند المسيحيين.

نهج البلاغة، ونهج علي عليه السلام في البلاغة

لعلّ أشهر مجموعة تصور بلاغة الإمام علي عليه السلام ما اختاره الشريف الرضي من كلام الإمام وجمعه في كتاب أسماه **نهج البلاغة**. وعلى الرغم من أنّ هذه المجموعة قيض من فيض الإمام، وقطرة من محيطه الشاسع، لأنّ ما سُجّل لعلي عليه السلام من الكلام أكثر مما هو في نهج البلاغة وما لم يسجَّل من الكلمات، والأفكار، والرؤى، والخواطر، لايدرِك غوره وكنهه إلاّ الله ورسوله؛ إلاّ أنه يمثل بلاغة الإمام خير تمثيل.

فقد ركّز الأدباء المسيحيون وغيرهم على نهج البلاغة، واعتمدوا عليه كنموذج من بلاغة الإمام، واعتبروه آية إمامته في الأدب، والفكر، والدين، والسياسة. يقول جرداق وهويرى الأدب قرينا وملازماً للعظمة والعظماء في التاريخ حين يقول:«**هذه الحقيقة تتركّز جليّة واضحة في شخصية علي بن أبيطالب** عليه السلام **. فإذا هوالإمام في الأدب، كما هوالإمام في ما أثبت من حقوق، وفي ما علّم وهدى. وآيته في ذلك «نهج البلاغة» الذي يقوم في أسس البلاغة العربية في ما يلي القرآن من أسس...**» (جرداق، روائع ٩).

لقد ولد علي عليه السلام في بيئة جاهلية تمتاز بلغة أصيلة صافية، فاتخذ الإمام من روائعها

وضمّها إلى البيان، الذي اختص به محمّد ﷺ، والذي فتح مصراعيه على ابن عمّه الحبيب لديه، وتلميذه الأثير عنده. حيث ربّاه في أحضانه، وعلّمه من علمه النبوي؛ كما علّمه لغة الوحي الذي نزل بها جبريل عليه السلام، فأصبح كلّه نباتاً خضراً نمّاها علي عليه السلام بعقله الفذّ، وخياله العميق، وسقاها بماء الحياة التي جرت في جوفه في ظل حبّه لله ولرسوله وفنائه فيهما، فجاشت أرض علي عليه السلام وترابه الخصب بمواهب لم يسبق إليها أحد من أقرانه الذين عاشوا البئية نفسها. ولا ممّن أتوا بعده حتى عصرنا الحاضر.

أعجب بنهج البلاغة ونهج علي عليه السلام في البلاغة كلّ من اطّلع عليه، إعجاباً جعل من نهج البلاغة كتاباً يحتلّ في العصر الحديث، المكان الأول في قائمة كتب الأدب والدين، و...، عند المسلمين والمسيحيين. فقد دعا محمدعبده المسلم، استاذ الأزهر الكبير، الطالبين لنفائس اللّغة والطامعين في التدرّج لمراقيها، أن يجعلوا هذا الكتاب أهمّ محفوظهم، وأفضل مأثورهم. كما دعاهم ليدرسوه، ويتأمّلوا ألفاظه في المعاني التي صيغت للدلالة عليها، ليصيبوا بذلك أفضل غاية وينتهوا إلى خير نهاية. وابراهيم اليازجي الذي يعدّه الأنطاكي أكتب كتّاب العرب، وإمام أساتذة اللغة في العصر الحديث بالإجماع (الأنطاكي٧٠٠)؛ ولا يوجد في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين من يتفوّق عليه من رجال القلم بالنسبة إلى كلّ علوم اللغة العربية، حسب ما يقول عنه العزيزي(العزيزي ٢٠٩)؛ يقول اليازجي هذا: «**ما أتقنتُ الكتابة إلاّ بدرس القرآن ونهج البلاغة القويم. فهما كنز العربية الذي لا ينفد، وذخيرتها للمتأدّب، وهيهات أن يظفر أديب بحاجته من هذه اللغة الشريفة إن لم يُحي لياليه سهراً في مطالعتهما والتبحر في عالي أساليبهما**»(الأنطاكي٧٠٠).

فإذا كان ابراهيم اليازجي يقول عن تأثير نهج البلاغة في أدبه وقلمه، ويعرّف لطالب اللغة العربية سبيل الظفر بها، فقد قام غيره من المسيحيين العرب، مَن أعدّ للدارسين طريق الوصول إلى نهج البلاغة والاطلاع عليها. وقدمنا القول عن فؤاد أفرام البستاني، إذ قام بإعداد كتاب موجز يتناول شخصية الإمام علي عليه السلام، وأضاف إليه بعض المختارات من خطب الإمام، وسمّاه «نهج البلاغة، درس ومنتخبات» وجعله أول كتاب يصدر عن

موسوعته الأدبية المعروفة بسلسلة «الروائع»، والتي تتناول بالدراسة والتحقيق والعرض أهم الكتب التراثية، والكنوز الأدبية، التي تركت آثاراً عميقة على السّاحة الفكرية المعاصرة. قال في هذا الكتاب: «**لعلي بن أبي طالب عليه السلام شخصية جذابة، حامت حولها أقلام الرواة والمؤرخين، واجتهدت في فهمها عقول النقاد والمفكرين. واهتدت بهديها فرق الزهاد والسالكين، وسار تحت لوائها الجمّ الغفير من المتأدبين، ولم تكن الآراء المختلفة، والنظريات المتباينة، والمجادلات العديدة بين السنّيين والشّيعيين على كرور الأيّام، إلاّ لتزيد الرجل سمواً، وعقليته بروزاً**» (أنور، ص٦١٩).

هذه الشخصية الفذّة الجذابة هي التي صاغت نهجَ البلاغة؛ ليكون قدوةً للبلاغة العربية وبلاغاً من الله ورسوله إلى الناس أجمعين. فقد أودع علي عليه السلام في نهج البلاغة غناءً لغوياً، وأدبياً، وعطاءً روحياً، وفكرياً، ليس لهما نظير في الأدب العربي، وفي الآداب العالمية. ومن هنا رأى **ميشال كعدي** في نهج البلاغة: «**أثواباً مطرزة ومرصّعة بزلال الكوثر، ومطيّبة بأنقى ما أنتجت الأرض من مرّ ولبان، على أنها هابطة من عَلياء الجنان**» (كعدي، ص١٤٠)

لقد وصف ميشال كعدى نهجَ البلاغة بعروس علي عليه السلام التي طاف بها في أمّته، ليتَهم يتمهّلوا قليلاً ويلثموا ريشة الإمام، حتى تتناثر منها حبّات اللؤلؤ، متوهّجة بالطهر، والزهد، وأناقة الحرف، ثمّ خاطب الناس وقال: «**تمهّلوا! لنجدل معاً الوشاح تلو الوشاح. قفوا! لنبني معه مداميك الفرح والجمال للمجتمعات التي تتوق إلى تحقيق البهاء، وتتوخّى عمل الرجاء. هذا الكتاب الرائع في محتواه، ما كان إلاّ من أجل تعليمنا وتربيتنا، فهو بلسَم لشفاء الروح، ودواء لعلاج أمراضنا الذاتية والجماعية**»(نفسه، ص١٤٠).

أما سعيد عقل فعندما تخيّل كلمات نهج البلاغة وخُطبَه، ارتسمت في ذهنه صورة أرباب ارتدوا أثواب الطيلسان، يتهيّب الناس من عظمتهم وهيبتهم، كما تهيّب هو نفسه عندما أراد أن يلقي قصيدته في ربّ الكلام، عليٍّ الإمام عليه السلام فقال في مطلعها:

كلامي على ربّ الكلام هوىً صعب ... تهيّبتُ إلاّ أنّني السّيفُ لم يَنبو

(علي والحسين، ص٣٧٥)

ثم ظلَّ منشداً قصيدته في علي عليه السلام، ذاكراً بطولاته، وشموخ لغته، وأريكة بلاغته، وعلوّ درجته، وطهارة بيته، حتى ساعده حسنُ الختام على ربط آخر القصيدة بأوّلها، وهو ما زال يرتعش من هيبة كلام علي عليه السلام، ويرتعش الكتاب الذي يلقي عليه قصيدته، بل ترتعش الكتب كلّها من هيبة ربّ الكلام وكلامه اذ يقول في ختامها:

كلامٌ، كمَا الأربابُ في طَيلسانها ... ألا فلتَداوله، وتَرتعشُ الكُتبُ

(نفسه، ص٣٧٧)

وبولس سلامة لقّب علياً عليه السلام بأمير البيان، ورآه مؤسّس الفصاحة وبانيها، وهوالذي نسج ونسّق ثوب اللغة العربية الفصحى السحري، والذي يجذب القلوب ويحيّر العقول. فمن حقه على بولس سلامة أن يقدم لعلى عليه السلام **ملحمة الغدير**وفاءا به و يحمد الله على هذا الوفاء:

أنت سلسلتَ من جمانك للـ ... فُصحى ونسَّقت ثوبها السِّحريّا

يا أميرَ البيانِ هذا وَفائي ... أحمدُالله أن خُلِقتُ وَفيّاً

(سلامة، عيدالغدير، ص٣١٠)

أما الأنطاكي، الذي طرق باب ملحمة الإمام علي عليه السلام لأول مرة في العصر الحديث، من المسلمين والمسيحيين، فيرى في نهج البلاغة سحراً حلالاً يسحر الألباب ما تُلي، وخمراً شمولاً تلعب بالألباب دون أن تحمل إثماً لساقيها، وعقود درّ لجيد الشرع، أو يشبهه بعرائس تبهر الدنيا بحليّها ومجاليها، كما يرى في أنغامه وموسيقاه ما يطرب الأسماع إلى أن يلهي سامعيه عن الدنيا وما فيها. ويعترف بأن الفصاحة ما دانت لإنسان عربي أو عجمي كما دانت لعلي بن أبيطالب عليه السلام حين يقول:

إنّ الفصاحة ما دانت لذي لسنٍ ... منَ البريّة عُربيها وعُجميها

كَما انثنتْ بِبَهاها وَهيَ خاضِعةٌ ... للمُرتضى اللَّسِنِ القولِ راعيها

(الأنطاكي، ص٦٩٩)

إنه يرى الفصاحة رعياً يرعاها علي عليه السلام. فتتجلى قدرة علي عليه السلام على الكلام في ذهن الانطاكي حتى يظهر له علي عليه السلام، وكأنّه خالق الفصاحة من العَدَم. وكأنّ الفصاحة لم يبرز

الى عالم الوجود إلاّ بيد علي عليه السلام إذ يقول:

كأنّها خُلقَتْ خَلقاً له وكَأنّهُ مِنَ العَدَمِ المجهولِ مُبديها

(نفسه، ص٧٠٠)

لا يقصد الأنطاكى من هذا الكلام أن عليا خالق الكلام من العدم دون الله؛ بل يذكر سبق على عليه السلام على كل من عُرف بالفصاحة ليقول إنه لا يقاربه أحد في الفصاحة، إنه يؤكد هذا الرأي بقوله:

وإنها فوق أقوال البرية طرا إنما دون ما قال باريها

فهو فوق كلام المخلوق و دون كلام الخالق كما قال عنه ابن ابى الحديد واشتهر بين العلماء ممن جاء بعده.

بعض رموز فصاحة الامام

لا أريد هنا أن أشرح شروط الفصاحة والبلاغة التي تتوفر في نهج البلاغة، ولا أن أورد نصّاً منه وأحلّله كلمةً كلمةً، وحرفاً حرفاً، وجملةً جملةً، فإنّ فيما أوردنا من أقوال أهل الفنّ كفاية في معرفة مكانة نهج البلاغة؛ كيف وقد قال عنه نصري سلهب وهو يتحدث عن بلاغة خطب الإمام علي عليه السلام والجمال المسيطر على أجزاء الخطبة كلّها، أنّ الإنسان إذا أراد أن يختار منها جملة هي أجمل، وأروع، وأسمى ما فيها «**لوقف حائراً متردداً ولرأى نفسه، بعد طويل تأمّل، مُنساقاً إلى ذكرِها برمّتها**» (سلهب، ص٥٨٠)

ومع هذا، لا أرى بأساً في ذكر بعض النّكات الهامّة التي اعتبرها الدارسون المسحيون من خصائص كلام علي عليه السلام، والتي يظنّ الإنسان أن يكمن فيها بعض أسرار بلاغة الإمام عليه السلام، أسرار جَعلت كلام علي عليه السلام يفوق كلام الخلق، ولا يعلوه إلاّ كلام الله وحده ورسوله. والخصائص هي:

شخصيته الفذة:

أول ما يلعب الدور في بلاغة الإمام عليه السلام هو شخصيته وموهباته الخاصّة. فقد أشار البستاني إلى ثلاث قوى أساسية في صياغة شخصية الإمام الأدبية وهي «**الشعور العميق**»

و«**المخيلة المشبعة بالحكمة**» و«**العقل المرتكز على المنطق**» (أنور، ص٦٢٠). وإذا دققنا النظر في كل ما قاله الإمام عليه السلام في نهج البلاغة؛ بخطبه و رسائله و كلماته، نجد هذه القوى متجلية فيها بعمقها و سعتها وارتفاعها، وليست هذه القوى اكتسابية فحسب؛ بل إنها من مواهب الله التي وهبها لعلي عليه السلام لصفاء قلبه و سعة روحه وعبوديته الخالصة لله. فهو عبد لله قبل كل شيء. إن عبودية علي عليه السلام لله تعالى هي سرّ الأسرار في حياته وخوارقه وأدبه، كما هي عند النبي صلى الله عليه وآله أعلى صفة وصفه بها الله تعالى، وأمرنا بالشهادة بها في قولنا: «**أشهد أنّ محمداً عبدُه ورسولُه**». والعبودية هذه هي التي جعلت من علي عليه السلام نفسَ محمّد صلى الله عليه وآله وأجرت من قلبه ينابيع الحكمة على لسانه، وصاغت من أدب علي عليه السلام أدباً يتلو أدب القرآن وأدب الرسول صلى الله عليه وآله كما جعل منه إماماً يتلو النبيّ في مكانته وهي آخر محطّة الكمال البشري، فقد انتبه إلى دورها في نهج البلاغة «ميشال كعدي»، وذلك لأنّ نفس الإمام لا شئ فيها غير عبادة الله فقال عنها: «**ثيابُه تعبقُ برائحة العبادة، وقفتُه على المنابر تضيئها أنوار العبادة. أيّ شئ عنده لم تغزله أنوال العبادة؟ أيّ لقمة أكلها لم تعجن بالعبادة؟ أيّ شئ وقع تحت يديه لم يحوّله إلى دروب العبادة؟ أيّ همسة منه لم تكن ملآى بالعبادة؟ أيّ بيان، وأيّ كلام لم يزدن بآيات الشهادة؟ أيّ حكمة وفلسفةٍ، ورأيٍ، وأدب في نهج البلاغة لم يكن مأخوذاً بفصول العبادة؟**» (كعدي، ص١٤٠). فكل حركات الإمام و سكناته، أقواله وأعماله، أكله ولباسه، بيانه و همساته، حكمته وفلسفته، ادبه وأفكاره لا شيء فيها غير العبادة، ولا تنبع من منبع غير ينبوع العبادة لله. والعبادة هي التي غزلت وجود الإمام بنسوج عقله و روحه وجسده، و سيطرت على حياته المادية والمعنوية وصبغتها بأحلى ألوان الوجود، فتجلت في نهج البلاغة، بكل حروفه و كلماته وجمله، وصاغت من بيان علي عليه السلام أعلى بيان و أشرف مقال.

الذكاء المفرط

الأديب الكبير «جورج جرداق» الذي سحرته بلاغة الإمام، وحيّرته شخصيته الفذة، وكتب عن بلاغته في كتابه الضخم «**الإمام علي عليه السلام صوت العدالة الإنسانية**»، ثم أفرد

كتاباً خاصّاً لبلاغة الإمام وأسماه «**روائع نهج البلاغة**». فقد رأى في علي عليه السلام مواهب تخصّه، وهي التي تجعل من نهج البلاغة عملاً عظيماً. وقد عَدّ من هذه المواهب: «**الذكاء المفرط**» وهو في رأيه ذكاء حيّ، قادر، واسع، عميق، لا تفوته أغوار. و«**الخيال المديد الواسع**»، خفّاق الجوانح في كلّ أفق، الذي حُرم منه كثير من حكماء العصور، ومفكّري الأمم. وهو نموذج للخيال العبقري، الذي يقوم على أساس من الواقع. ثم رأى جرداق **الذكاء والخيال** يتّحدان في أدب الإمام ويندمجان مع **العاطفة** الحارة التي تواكب الإمام في حياته أنى اتجه، وحيث سار، تُواكبه في ما يحمل على الغضب والسخط، كما تواكبه في ما يثير العطف والرضا فقال: «**هذا الذكاء الخارق وهذا الخيال الخصب في أدب الإمام يتحدان اتحاد الطبيعة بالطبيعه، مع العاطفة الهادرة التي تمدّهما بوهج الحياة. فإذا الفكرة تتحرّك وتجري في عروقها، سخيةً حارة**» (جرداق، روائع، ص١٤).

إنَّ علياً عليه السلام يخاطب الشعور بمقدار ما يخاطب العقل، وذلك لانطلاق كلامه من عقل تمدّه العاطفة بالدفء ويقول جرداق: «**ذلك لأن المركب الإنساني لا يرضيه طبيعياً، إلاّ ما كان نتاجاً لهذا المركب كلّه. وهذا الأثر الأدبي الكامل، هو ما نراه في نهج البلاغة**» (نفسه، ص١٥)

صداقة علي عليه السلام

إن ادب علي عليه السلام تصوير صادق عن حياته؛ وذلك لأنّ حياته انطلقت من رؤية توحيدية إلى الوجود، ومن الإيمان بأن خالق النّملة هو خالق النخلة، واستقرّ الإيمان هذا في اعماق قلبه، وأخذت بجوامع وجوده، وظهرت على لسانه، وتجلّت في فعاله، وربط أول حياته بآخره، وقوله بفعله، وعقله بعاطفته، وغضبه بحنانه. فهو صادق في قوله. فما يلقي على المؤمنين من المواعظ إلاّ وتجد في حياته وسلوكه مثلاً صالحاً، وشاهداً صادقاً لتلك المواعظ في أرفع وأعلى درجتها. يقول سلهب: «**ولو تجمّع شانؤوه وفتّشوا أيّاماً وسنين، تحت عدسة المجهر، ليعثروا على كلمة قالها، لم تكن تجسيداً للصدق والنبل والشّرف، بل تجسيداً للشجاعة الأدبية وللحقيقة، معبرة عن واقعٍ عاشه، لماعثروا على شئ**» (سلهب، ص٥٥٠).

هـذا الصدق هو روح الجمـال، والحـقّ، وإرادة الحياة القادرة الغلابه فـي رأي جرداق، وهوالـذي ظهر في أسـلوبه؛ حتى ترفّـع عن الصنعـة والتكلّف، على الرّغم مـن كثرة جمله المتقاطعـة الموزونـة. وحتـى السـجع عنده تجـده بعيـداً عن التكلّـف وقريباً مـن الطبع الزاخر.

إنه أدب في خدمة الإنسان

إنه أدب في خدمة الإنسان وفي توجيهه نحو الكمال؛ إذ فيه يرفع علي عليه السلام الستار عن حقيقة الدّنيا والآخرة، ويحمل الإنسان على العمل الصالح، والسير في صراط الحقّ، والدفاع عن المظلوم، ومحاربة الظلم والظالم، وفيه الدعوة إلى مواساة السائل واليتيم والفقير. ثم إنه أدب يوجّه البشرية نحو الكمال. يقول سلهب: «**لقد وضع تقواه وبلاغته في خدمة البشر ليوضح لهم أن الدنيا دار فناء و أن الآخرة دار بقاء بغية حملهم على العمل الصالح، على السير في صراط الحق، على مواساة السائل واليتيم، على نصرة المظلوم ورد ظلم الظالم، على الإحسان إلى الفقير وابن السبيل، على العمل بما أوصى به كتاب الله على الابتعاد عما نهى عنه فيصبحوا بشرا صالحين خالدين في جنة الله**» (سلهب، ص٥٧١).

إنه أدب الحياة، والحيويّة

إنه أدب الحياة، والحيويّة، والنّشاط الفكري. يولّد الأفكار واحداً بعد الآخر، ويوسّع آفاق الخيال، وينفذ إلى القلب، ويحرّك الفضائل الراقدة، والعواطف الخامدة. وبذلك يحرّك في وجود الإنسان عوامل الحياة، وهو مصداق حيّ لقول الإمام الصادق عليه السلام: «**إن أحاديثنا تحيي القلوب**».(**مجلسي، بحار الأنوار ج٢، ص١٤٤**)

أجل، أنه يحرك في وجود الإنسان عوامل الحياة، ولكنه لا يقف عند هذا الحدّ؛ بل يقوم بدور أكبر، فيشدّ الإنسان بالإنسان و بكلّ الخلائق والموجودات و بكلّ الكائنات؛ بشمسها وقمرها، بسمائها وأرضها، بحارها وجبالها، إذ يرى الكون قائماً بالله الواحد، ترتبط أجزاؤه بعضها ببعض، بقوة فاعلة في الوجود، تجعل منه وحدة متكافئة ومتعاونة، ومن كلّ جزء منه موجوداً حياً، يخاطبك ويدعوك بما يدعو به الكونُ كلّه. فتجد «**اليوم**»، عند

علي عليه السلام، يخاطبك وينصحك ويدعوك إلى الخير والصلاح بقوله: «**أنا يوم جديد، وأنا عليك شهيد. فقل فيّ خيراً واعمل فيّ خيراً** (الكليني، ج٢، ص٥٢٣).

إنه ملتقى الأديان السماوية

إنه أدب يشدّ الإنسان بالإنسان، والمسيحي بالمسلم، ويرفع الحواجز عن الأديان الإلهية؛ ليلتقي المؤمنون وجميع محبّي الحقّ، والعدل، والتقوى، من كلّ الأديان، تحت راية عبودية الله. وفي ذلك يقول جوزيف الهاشم: «**من قرأ نهج البلاغة أعجب بعلي** عليه السلام، **ومن أعجب به أحبّه، ومن أحبّه تقرّب منه، ومن تقرّب منه التقى معه، ومن التقى معه، تلاقى مع سائر الأديان والناس**» (الهاشم، ص١١).

ويقول سلهب: «**وإنني وأنا أسير في خطى علي** عليه السلام، **أدعوجميعَ إخوتي المسيحيين إلى الإقبال على نهج البلاغة، يقرأونه بإمعان وعمق، ليتبينوا فيه تلك الخيوط الروحية المشعّة التي تشدّ المسيحي إلى المسلم؛ لأنهما كلاهما مؤمنان يغرفان ايماناً من كتاب الله. فلكلّ مؤمن أن يعمل وفق ما أوصى به دينه، وفي مثل هذه الحال يلتقي جميع المؤمنين في المحبّة وفي الله**» (سلهب، ص٥٨١).

اتصاله بمعين الوحى

اهم ما نستطيع أن نركز عليه في مجال ادب الإمام علي عليه السلام لنعرف شخصيته الأدبية هو المعين الذى استقى منه علي عليه السلام أدبه. إنّ المعين الذي اسقى منه علي عليه السلام أدبَه، هو معين الوحي؛ أي القرآن أولا، ومعين النبوّة؛ أي النبي محمد صلى الله عليه وآله ثانيا في رأي الأدباء المسيحيين إذ قالوا لقد سمع غيره القرآن وكلام النبي، وعاشوا في العصر الذى عاش فيه علي عليه السلام؛ لكنّه هو الوحيد الذي وعاهما بقلبه ونفذ إلى أعماقهما بصفائه وسبر أغوارهما، فلم يكن أعلم منه بالحديث والقرآن. ومن هنا سما إلى آفاقٍ لا يدركها البشر، وحلّ أدبه مكاناً فوق المخلوق. حتى قال فيه جرداق:

«**بيان لو نطق بالتقريع لانقضّ على لسان العاصفة انقضاضاً! ولو هدّد الفساد والمفسدين لتفجّر براكين لها أضواء وأصوات! ولو انبسط في منطقٍ لخاطب العقول والمشاعر فأقفل كلّ**

باب على كلّ حجّة غير ما ينبسط فيه! ولو دعا إلى تأمّل لرافق فيك منشأ الحس وأصل التفكير، فساقك إلي ما يريده سوقاً، ووصلك بالكون وصلاً، ووحد فيك القوى للاكتشاف توحيداً. وهو لو راعاك لأدركت حنان الأب ومنطق الأبوة وصدق الوفاء الإنساني وحرارة المحبّة التي تبدأ ولاتنتهي! أمّا إذا تحدّث إليك عن بهاء الوجود وجمالات الخلق وكمالات الكون، فإنّما يكتب على قلبك بمدادٍ من نجوم السماء!

بيانٌ هو بلاغةٌ من البلاغة، وتنزيلٌ من التنزيل. بيان اتّصل بأسباب البيان العربي ما كان منه وما يكون، حتى قال أحدهم في صاحبه إن كلامه دون كلام الخالق وفوق كلام المخلوق» (جرداق، روائع، ص ٣٣).

إن الحياة المليئة بالقدرة، والبطولة، والمكرمات الجليلة، والفضائل الكاملة الشامله، والسجايا الوسيعة العميقة، والبلاغة و... ومافيها من الانسجام، والاندماج، واجتماع أسباب الكمال، لا يمكن أن تتوفر عند أحد لايحظى بعلمٍ كامل بالقرآن. لقد اهتم علي عليه السلام بحفظ القرآن، فقد جمعه و رتّبه، حسب الترتيب الذي أمر به الرسول صلى الله عليه وآله، بعد أن كان كاتبه في عصر النبي صلى الله عليه وآله، وفي ذلك قال الأنطاكي:

ماكان يَحفظ إلاّ المرتضى بحَيا ... ةِ المصطفى الآيَ في سامي تتاليها
ولم يكن مِن صَحب أحمدَ أو ... أنصارِه ألمَعِيّ النَّفسِ واعيها
فكان جامعَها بعدَ الشّتات بقُر ... آنٍ كما نزلتْ هدياً لأهليها
وَ ضابطاً بعدَ تدقيقٍ قراءتَها ... كيْ يأمنَ الخطأ المجهودَ قاريها

(الأنطاكي، ص ٦٧٠)

أشار الأنطاكى إلى أنه كتبَ القرآن في عصر النبي، ولم يكن في ذلك الوقت من وعى القرآن كما وعاه علي عليه السلام. وأنّه كان جامع القرآن بعد النّبي ومدقّقة وحافظه. ولم يجمع القرآنَ إلاّ علي عليه السلام. وذلك بعد فوت رسول الله صلى الله عليه وآله حين عهِدَ علي عليه السلام ألاّ يخرج من البيت حتى ينتهي عن جمع القرآن وترتيبه. وقد قال الإمام الصادق عليه السلام: **«ما ادّعى أحدٌ من الناسِ أنَّه جمعَ القرآنَ كلَّه كما أنزِل إلاّكذّاب، وما جمعَه وما حفِظه كما أنزل اللهُ تعالى إلّا عليُ بن أبيطالب والأئمة من بعده»** (الكليني، ج١، ص٢٢٨).

أما **القراءات القرآنية** فيشير إليها الأنطاكي ويرى أنّ مرجعها كلّها إلى قراءة «**أبي عمرو بن العلاء**» و «**عاصم بن أبى النجود**»وأمثالهما من الأئمة، وهؤلاء كلّهم تلاميذ **عبدالرحمن السلمي** القاري وهو تلميذ علي عليه السلام. ومن فمِه الشّريف تعلّم القرآن و رواها ويقول:«**وهكذا يكون جمع القرآن وصيانته من التحريف بفضل سيدنا اميرالمؤمنين** عليه السلام» (الأنطاكي، ص٦٧٠)

ويعود الفضل في تفسير القرآن إلى علي عليه السلام أيضاً لأنّ علم التفسير يعتبر من جملة العلوم التي خص الله بها أهل البيت عليهم السلام. قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ مِن علمِ ما أوتينا تفسيرُالقرآن وعلمُ تغييرالزمان وحدثانه**» (الكالينى، ج١: ٢٢٩).

وإذا بحثنا عن علم التفسير في التاريخ الاسلامى لوجدنا أصوله دون ريب عند علي بن أبيطالب عليه السلام. أما الحديث فنعرف أنه أصيب بعد النبي صلى الله عليه وآله بأزمة التحريف. حتى اختلف فى صحة المروي عن الرسول واحتاج الخلفاء في تبيين صحته إلى الاستشهاد في بعض المجالات. ولم يكن الرّاوون دائماً ممّن يتعمّدون الكذب، بل كان إلى جانب التعمّد، ونسبة الكذب إلى الرسول صلى الله عليه وآله أمور أخرى تساعد على تحريف بيانه صلى الله عليه وآله. وقد أوضح الإمام علي عليه السلام تلك الأمور في حديث طويل، قسّم فيه الرواة إلى أربعه أقسام: منافق يظهر الإيمان، متصنّع بالإسلام، لا يتأثّم ولا يتحرّج أن يكذب على رسول الله متعمّداً، ورجلٌ سمع من رسول الله شيئاً لم يحمله على وجهه، ووَهِمَ فيه ولم يتعمّد كذباً، ورجلٌ ثالث سمع من رسول الله شيئاً أمر به ثمّ نهى عنه وهو لا يعلم، فحفظ منسوخه ولم يحفظ الناس، وآخر رابع لم يكذب على رسول الله، مبغض للكذب، خوفاً من الله، وتعظيماً لرسول الله، لم ينسه؛ بل حفظ ما سمع على وجهه، فجاء به كما سمع، لم يزد فيه، ولم ينقص منه، وعلم النّاسخ والمنسوخ، فعمل بالنّاسخ ورفض المنسوخ...ثمّ يقول عن قول علي عليه السلام: «**فما نزلت من القرآن آية إلاّ أقرأنيها وأملاها عليَّ، فكتبتها بخطّي، وعلّمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها وخاصّها وعامّها ودعا الله أن يعطيني فهمها وحفظها. فما نسيت آية من كتاب الله ولا علماً أملاه عليّ...**» (الكليني، ج١، ص٦٣)

والحديث طويل أوردنا منه قدر الكفاية. فكان علي عليه السلام هوالذي لم يفارق الرسول في أمر من الأمور. وسمع الأحاديث أوّلها وآخرها، وناسخها ومنسوخها، ووعى معانيها،

وحفظها بذكائه الموهوب. والحوادث التي حدثت في عصر الخلفاء، ولم يعرف فيها أحد حكم الله في تلك المجالات إلاّ علي عليه السلام، معتمداً على القرآن والأحاديث النبوية، لقد كشفت للناس عن مقدرة الإمام عليه السلام على القرآن، والتفسير، والحديث، والفقه، وغيرها، ما لا يترك مجالاً للشّكّ في أنّ علياً أفقه الناس وأعلمهم وأقضاهم. قال العزيزي: «**فما أظن أحداً يجادلني في أن الإسلام في عصوره المختلفه لم يرَ مَن هو أفقه في الدّين الإسلامي مِن الإمام علي**» (العزيزي، ص٧٥).

ويضيف جرداق: «**أما علم الفقه فإنّ معاصريه لم يعرفوا من هو أفقه منه وأصلح، ولم يقف علم علي عليه السلام بالفقه عند علمه بنصوصه وأحكامه؛ بل تجاوزه إلى العلم بأدوات الفقه ومنها علم الحساب الذي كانت معرفته فيه تفوق معرفة معاصريه**» (جرداق، صوت العدالة، ص٨٣).

فاتضح لنا أنّ مصدر علوم علي عليه السلام هو القرآن والحديث كما ذكرنا، إلى جانب العقل الذي امتاز به علي عليه السلام، وقد أشار الأدباء والمفكرون المسيحيّون جميعهم إلى هذا الموضوع. فقال جوزيف الهاشم من جملة ما قال:

فكان ظلَّ رسولِ الله كاتبَه ... و أوّلَ القومِ إيماناً بِدَعوَته
سِيدَ البيانِ وبابُ العِلم مُشترعاً هو ... والفقهُ مُذ كانَ نهجٌ مِن بلاغَته جَولاتُ
الفَتى، أم هو المفتيُّ قاصعةٌ محجّةُ ... مِنبَرِهِ في شِقشقيَّتِه
الشّرع، أقضاهموأورعُهم ... والعفوُ والصفحُ فيءٌ مِن عَباءَتِه والنَّهج
يعُبُّ من منهلِ القرآن يحفظه ... كالبَحرفاغرِف مِن غَزارتِه

(الهاشم ٤٥)

وقد أكّد كلّ الدارسين على هذا والمصدر الذي استقى منه علي عليه السلام علومه. ولكن الغرابة لا تترك أفكار الدارسين. وذلك لأنّ القرآن سمعه المسلمون، وأنّ أحاديث النبي سمعوها، وعاشوا النبي. أمّا كيف لم ير أحدٌ في القرآن ما رآه عليٌ عليه السلام؟ ولم يستخرج من القرآن ما استخرجه علي عليه السلام؟ لماذا لاينطق القرآن مع أحد من المسلمين وإن استنطقوه؟ ولكنّ علياً عليه السلام يخبر عنه، ويعلم ما فيه؛ مِن علم ما مضى، وعلم ما يأتي؟ ويطلب من

الذين حوله أن يسألوه، ليخبرهم. وقد ملأ الآذان قوله: «**سلوني قبلَ أن تفقدوني**» (العاملي، ج١٥، ص ١٢٨)

وقد انتبه الدارسون المسيحيون في العصر الحديث إلى أمر آخر و هو أن علم علي عليه السلام لم يكن بالقرآن فحسب؛ بل كان عالماً بالكتب السماوية كالإنجيل والتوراة، يشهد بذلك الأحكام التي كانت يُصدرها على أهل التوراة بتوراتهم وعلى أهل الإنجيل بإنجيلهم. فقد ركزّ الأدباء المسيحيون على مقدرة الإمام هذه، و أوردوا حديث علي عليه السلام في هذا المجال، الذي يقول فيه «**...أما والله لو ثنّيت لي وسادةٌ فجلست عليها، لأفتيت أهل التوراة بتوراتهم؛ حتّى تنطق التوراة وتقول صَدقَ عليٌّ** عليه السلام **وما كذب، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيَّ، وأفتيت أهل الإنجيل بإنجيلهم؛ حتّى ينطق الإنجيل ويقول صَدقَ عليٌّ** عليه السلام **وما كذب، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيَّ. وأفتيت أهل االقرآن بقرآنهم؛ حتّى ينطق القرآن ويقول صَدقَ عليٌّ** عليه السلام **وما كذب، لقد أفتاكم بما أنزل الله فيَّ** (المجلسي، ج١٠، ص ١١٧).

هذا يعنى أنه كان على علاقة وثيقة بروح القرآن، وروح الكتب السماوية، من الإنجيل، والتوراة، والزبور، وغيرها، مما جعله يحيط بها علماً ومعرفة. ولم يكن علم علي عليه السلام في مجال القرآن والأحاديث ليكتفي بظاهرهما. فقد أدرك علي عليه السلام من القرآن والحديث ظاهراً، وباطناً، ولباطنه بطوناً. وقال: «**إنّ القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق**» (الكليني٢: ٥٩٨).

فوعى الإمام ظاهره الأنيق تمامَ الوعي؛ حتى تجلّى في بيانه وصاغ منه بياناً معجزاً يلي القرآن جمالاً وبهاءاً. كما نفذ إلى أعماق القرآن والحديث وفتح من كلّ باب من أبواب القرآن وكلام الرسول آلاف الأبواب. وبينما كانت قمّة نبوغ العرب في ذلك العصر يظهر في قدرتهم على الحفظ واستغنائهم به عن الكتابة، كان علي عليه السلام بذهنيتها الخارقة، وعقليته الّتي تعتمد على الدليل والبرهان، ومقدرته الفائقة على التحليل العلمي والرؤية العميقة للطبيعة وماوراء الطبيعة، يكشف عن حقائق علمية في عالم الوجود. ويضع للعلوم أصولها وقواعدها؛ حتى قيل «**ليس من علم عربي إلاّ وقد وضع علي** عليه السلام **أصله أو ساهم في وضعه**» (جرداق، صوت العدالة، ص ٨٢).

هذا كله دليل على أن عليا لم يكن يكتفي من القرآن بظاهره، ومن كلام النبي صلى الله عليه وآله أيضاً بظاهره؛ بل كان على اتّصال بروح القرآن الكاملة، وهذا الاتصال هوالذي وهب لأعماله النشاط، والحيوية، والتجدد، والتطور. فبينما كانت الآيات والأحاديث عند الناس حبوباً يقلّبونها في أيديهم، يأكلونها ويتمتعون بها، دون أن يبصروا كنوزها وطاقاتها المنطوية فيها، كان علي عليه السلام يزرعها في قلبه الطاهر و يسقيها بماء المزن المحمدي فتنمو وتورق وتُثمر سنابلَ، في كلّ سنبلةٍ مأة حبّة؛ لتعطي أكلها كلّ حين بإذن ربها. من هنا قال الأنطاكي:

بحرُ العُلومِ أميرُالمؤمنينَ بلا ... ريبٍ وفي صَدرِه مَثوى لآليها
هَيهاتَ ما فيعبادِالله ذو بَصَرٍ ... إلاّ وَعَنه تَلَقّاها ويَرويها
ما فاتَه أبداً إدراكُ ظاهرِها ... أوِ الوصولُ إلى أخفَى خَوافيها
والمصطفى شاهدٌ حقٌّ شهادتُه ... فيه، وإنّ عبادَ اللهِ تَدريها
فقال: إنيَ لِلعلمِ المدينةُ والـ ... ـبابُ العليُّ ومنهُ فازَ آتيها

(الأنطاكي، ص ٦٧١)

فهو في سعة علمه ومركزيّته للعلوم وسيطرته بها كالبحر، يجمع في صدره درره الفريدة و يقذف بها، كما لا يفوته شئ من ظاهر القرآن وباطنه، وليس في عبادالله أحد من العلماء والعقلاء عالما بالقرآن مثله. وقد وجد الأنطاكي في غزارة علم الإمام علي عليه السلام سرّاً باح بحقيقته النبي محمد صلى الله عليه وآله وشهد به، حين قال: «**أنا مدينة العلم وعلي بابها**»(العاملي ٢٧: ٣٤). هنا بالذات تكمن الأسرار الّتي بها أحاط عليٌّ عليه السلام بكلّ شئ علماً. وفي ذلك قال خليل فرحات في قصيدته: «في محراب علي»، عندما قال:

فمُصحفُ ربِّ النّاسِ قولٌ، وفعلُه ... إمامٌ، ومَن لم يَدرِ ذلكَ فليَدرِ

(الفردوس للثقافة والإعلام، ص٢٠)

النتيجة

إن نهج البلاغة و نهج علي عليه السلام في البلاغة قد اثبتا للدارسين والأدباء المسيحيين أنّ أدب علي عليه السلام يمتاز بخصائص تجعله يجوز الزمان والمكان، والألوان والقوميات

والشعوب والأديان، ويخاطب الإنسان بما هو انسان في كل عصر وزمان. إنه أدب الحياة والحيوية و إنه في خدمة الإنسان و إنه ملتقى الأديان السماوية وليست هذه الخصائص المنطوية في بيان علي عليه السلام إلا لاتصاله بمعين الوحى و لكونه نابعا من روح القرآن و من فطرة الله التي فطر الناس عليها، ولهذا تراه يخاطب الإنسان ويرشده كما يخاطب القلوب ويكتب عليها. من هنا يرى المرء في نهج البلاغة تسلسلاً منطقياً وتماسكاً بين الفكرة والفكرة ويجعل من نهج البلاغة كتابا منسجما روحا و فكرا و بيانا يَعجز الناسُ عن الإتيان بمثله. فإذا اعتبرنا القرآن معجزة النّبي وشاهد صدقه في القول، فلا يسعنا في علي عليه السلام إلاّ القول بأنه معجزة النبي وشاهد صدقه في العمل. و إذا كان القرآن آية صدق النبوّة المكتوبة، فإنّ علياً عليه السلام آيته الكبرى، وشاهده البشري الحيّ، الذي يمثّل القرآن ببيانه وأوصافه، ولهذا نجد الأوصاف التي وصف الله بها القرآن، متجلّياً كلّها في علي عليه السلام وفي بيانه.

لقد اعتقد الدارسون المسيحيون أنّ الرسول صلى الله عليه وآله قد أفرغ حقيقة القرآن في نفسه أولاً، وفي نفس علي عليه السلام ثانياً، فأصبح هو وعلي عليه السلام يمثّلان القرآن الذي أنزله الله تعالى؛ تمثيلاً فكرياً، وروحياً، وعملياً. وإن الدّراسات التي قامت حول شخصيّة علي عليه السلام البلاغية، والعلمية، والإنسانية، والبطوليه، والأخلاقية أثبتت للدراسين هذه الحقيقه؛ حتّى ثبت لديهم أنه هو القرآن الناطق، وهوالقرآن البشري، وفيه ما يعجز البشر عن الإتيان بمثله.

و الفرق بين علي عليه السلام والقرآن هو الفرق بين الفعل والقول. فالقرآن قول شاهد على صدق النبى بآياته و سوره، وعليّ عليه السلام هو الشاهد على صدق القرآن وصدق دعوة النبي، وسيبقي شاهداً لصدق الرّسالة، ومعجزةً كبرى إلى أبد الدهر. كما هو الشاهد الآن في عصرنا الحاضر، يشهد بذلك المسلمون والمسيحيون.